١ـ الإلــه

التحقيق اللغوي

مادة كلمة (الاله) : الهمزة واللام والهاء ، وقد جاء في معاجم اللغة من هذه المادة ما يأتي بيانه فيما يلي :[١]

١ - [ألهتُ إلى فلانٍ] : سكنت اليه

٢ - [أَلِهَ الرجل يأله] إذا فزع من أمرٍ نزل به فألهه غيرُه أي أجاره

٣ - [أَلِه الرجلُ إلى الرجل] : اتّجه أليه لشدة شوقه إليه .

٤ - [ألهَ الفصيل] إذا ولع بأمّه

٥ - [ألهَ إلاهة وأُلوهَةً] عَبَدَ .

٦ -[وقيل (الاله) مشتق من (لاه يليه ليهاً] : أي احتجب

ويتبيَّن من التأمل في هذه المعاني المناسبة التي جعلت « أله يأله إلهة » تستعمل بمعنى العبادة ــ (أي التأله) - (الاله) بمعنى المعبود : ــ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/١٩ - ٢٠ ، وتفسير النيسابوري بحاشية تفسير الطبري ١/٦٥ - ٦٦ .

١ ـ أن أول ماينشأ في ذهن الانسان من الحافز على العبادة والتأله يكون مأتاه احتياج المرء وافتقاره. وما كان الانسان ليخطر بباله أن يعبد أحداً مالم يظن فيه أنه قادر على أن يسد خلّته، وأن ينصره على النوائب ويؤويه عند الآفات، وعلى أن يسكن من روعه في حال القلق والاضطراب.

٢ ـ وكذلك أن اعتقاد المرء أن أحداً ماقاض للحاجات ومجيب للدعوات، يستلزم أن يعده أعلى منه منزلة وأسمى مكانة، وألا يعترف بعلوه في المنزلة فحسب، بل أن يعترف كذلك بعلوّه وغلبته في القوة والأيد.

٣ ـ ومن الحق كذلك أن ماتقضى به حاجات المرء غالباً حسب قانون الأسباب والمسبّبات في هذه الدنيا، ويقع جلّ عمله في قضاء الحاجات تحت سمع المرء وبصره، وفي حدود لاتخرج من دائرة علمه، لاينشىء في نفس المرء شيئاً من النزوع إلى عبادته أبداً، خذ لذلك مثلاً أن رجلاً يحتاج إلى مال ينفقه في بعض حاجته، فيأتي رجلاً آخر يطلب منه عملاً أو وظيفة فيجيبه الرجل إلى طلبه ويقلده عملاً، ثم يأجره على عمله، فإن الرجل لايخطر له ببال أصلاً ـ فضلاً عن أن يعتقد ـ أن الرجل يستحق العبادة من قبله، لما علم بل رأى بأمّ عينه كل المنهاج الذي بلغ به غايته وعرف الطريقة التي اتخذها الرجل لقضاء حاجته. فإن تصوّر العبادة لايمكن أن يخطر ببال المرء إلا إذا كان شخص المعبود وقوّته من وراء حجاب الغيب، وكانت مقدرته على قضاء الحوائج تحت أستار الخفاء. من هاهنا قد اختيرت للمعبود كلمة تتضمن معاني الاحتجاب والحيرة والوله مع اشتمالها على معنى الرفعة والعلوّ.

٤ ــ ورابع الأربعة أنه من الأمور الطبيعية التي لامندوحة عنها أن يتجه الانسان في شوق وولع إلى من يظن فيه أنه قادر على أن يقضي حاجته إذا احتاج ، وعلى أن يؤويه إذا نابته النوائب ، ويهدىء أعصابه عند القلق .

فتبين من ذلك كله أن التصورات التي قد أطلقت من أجلها كلمة (الاله) على المعبود هي : قضاء الحاجة والاجارة والتهدئة والتعالي والهيمنة وتملك القوى التي يرجى بها أن يكون المعبود قاضياً للحاجات مجيراً في النوازل وأن يكون متوارياً عن الأنظار يكاد يكون سراً من الأسرار لايدركه الناس ، وأن يفزع اليه الانسان ويولع به .

تصور الاله عند أهل الجاهلية :

ويجمل بنا بعد هذا البحث اللغوي أن ننظر ماذا كانت تصورات العرب والأمم القديمة في باب الألوهية التي جاء القرآن بإبطالها .

يقول سبحانه وتعالى .

١ ــ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً)

(مريم : ٨١)

(واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون .)

(يس : ٧٤)

يتبين من هاتين الآيتين الكريمتين أن الذين كان يحسبهم أهل

الجاهليه آلهة لأنفسهم كانوا يظنون بهم أنهم أولياؤهم وحماتهم في النوائب والشدائد وأنهم يكونون بمأمن من الخوف والنقض إذا احتموا بجوارهم

٢ ــ (فما أَغنَت عَنهُمْ آلِهَتُهُم التي يَدعونَ من دونِ اللهِ من شيءٍ لمَّا جاء أَمرُ ربِّكَ وما زادوهم غَيْرَ تتْبيب .)

(هود : ١٠١)

(والذينَ يدعونَ منْ دونِ اللهِ لايخلقُون شَيْئاً وهُمْ) يُخْلَقونَ . أمواتٌ غيرُ أحياءٍ وما يَشعرونَ أَيّانَ يُبْعَثون . إلهُكُم إلهٌ واحدٌ .) (النحل : ٢٠ - ٢٢)

(ولا تَدْعُ معَ اللهِ إلهاً آخرَ ،لا إلهَ إلا هوَ [1] .)

(القصص : ٨٨)

---

(١) مما ينبغى أن يلاحظ في هذا المقام أن كلمة (الإله) جاء استعمالها في القرآن بمعنيين اثنين ، أحدهما المعبود الذي يعبده الناس في الواقع ، حقاً كان ذلك المعبود أم باطلاً ، لاعبرة بذلك ، وثانيها المعبود الذي يستحق في حقيقة الأمر أن يعبد . وفي هذه الآية قد استعملت كلمة (الإله) في الموضعين منها بهذين المعنيين المختلفين.

(وما يتّبِعُ الذينَ يَدعونَ من دونِ اللهِ شُركاءَ إنْ يتَّبعونَ إلاَّ الظَّنَّ وإنْ هُم إلاَّ يخرُصونَ .) (يونس : ٦٦)

وتتجلى من هذه الآيات بضعة أمور ، **أحدها** أن الذين كان أهل الجاهليه يتخذونهم آلهة لهم كانوا يدعونهم عند الشدائد ويستغيثون بهم ؛ **والثاني** : أن آلهتهم أولئك لم يكونوا من الجن أو الملائكة أو الأصنام فحسب بل كانوا كذلك أفراداً من البشر قد ماتوا من قبل، كما يدل عليه قوله تعالى: «أمْواتٌ غيرُ أحياء ومايشعرون أيان يُبْعَثون» دلالة واضحة **والثالث**: أنهم كانوا يزعمون أن آلهتهم هذه يسمعون دعاءهم ويقدرون على نصرهم.

ولا بد للقارىء في هذا المقام من أن يكون على ذكر من مفهوم الدعاء ، ومن وضعية النصرة التي يرجوها الانسان من الاله فالمرء إذا كان أصابه العطش مثلاً فدعا خادمه وأمره بإحضار الماء أو إذا اصيب بمرض فدعا الطبيب لمداواته ، لا يصحّ أن يطلق على طلب الرجل للخادم أو للطبيب حكم «**الدعاء**» وكذلك ليس من معناه أن الرجل قد اتخذ الخادم أو الطبيب إلهاً له. وذلك أن كل مافعله الرجل جارٍ على قانون العلل والأسباب ولا يخرج عن دائرة حكمه. ولكنه إذا استغاث بولي أو وثن ـ وقد أجهده العطش أو المرض ـ بدلاً من أن يدعو الخادم أو الطبيب ، فلا شك أنه دعاه لتفريج الكربة واتخذه إلهاً . فانه دعا ولياً قد ثوى في قبر يبعد عنه بمئات من الأميال، فكأني به يراه سميعاً بصيراً ويزعم أن له نوعاً من السلطة على عالم الأسباب

مما يجعله قادراً على أن يقوم بابلاغه الماء أو شفائه من المرض ، وكذلك إذا دعا وثناً في مثل هذه الحال يلتمس منه الماء أو الشفاء ، فكأنه يعتقد أن الوثن حكمه نافذ على الماء أو الصحة أو المرض ، مما يقدر به أن يتصرف في الأسباب لقضاء حاجته تصرفاً غيبياً خارجاً عن قوانين الطبيعة . وصفوة القول أن التصور الذي لأجله يدعو الانسان الاله ويستغيثه ويتضرع اليه هو لاجرم تصور كونه مالكاً للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة وللقوى الخارجة عن دائرة نفوذ قوانين الطبيعة .

٣ ـ (ولَقَدْ أَهلَكْنا ماحَوْلَكُمْ مِنَ القُرى وصرَّفنا الآياتِ لعلّهمْ يرجِعونَ . فَلولا نصرَهُمُ الذينَ اتَّخذوا من دونِ اللهِ قُرباناً آلِهةً بلْ ضلّوا عنهمْ وذلكَ إفكُهُمْ وما كانوا يَفترونَ .) الاحقاف : ٢٧-٢٨

(ومالِيَ لا أَعبُد الذي فطرَني وإليه تُرجعونَ ، أأتخِذُ منْ دونِه آلِهةً إن يُرِدْنِ الرّحمانُ بِضُرٍّ لاتُغنِ عني شفاعتُهُمْ شيئاً ولا يُنقِذونِ .) (يس : ٢٢ ـ ٢٣)

(والذينَ اتّخذوا مِنْ دونهِ أَولياءَ ما نَعبُدُهُمْ إلا ليُقرِّبونا

إلى اللهِ زُلفى إنَّ اللهَ يحكُم بينَهمْ فيما هُمْ فيه يختلفون .)

(الزمر : ٣)

(ويَعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ مالا يضرُّهُمْ ولا ينفعُهمْ

ويقولونَ هؤلاءِ شُفعاؤ نا عِندَ اللهِ .) (يونس : ١٨)

فيتجلى من هذه الآيات الكريمة أمور عديدة منها أن أهل الجاهلية ما كانوا يعتقدون في آلهتهم أن الألوهية قد توزعت فيما بينهم ، فليس فوقهم إله قاهر ، بل كان لديهم تصور واضح لاله قاهر كانوا يعبرون عنه بكلمة (الله) في لغتهم . وكانت عقيدتهم الحقيقية في شأن سائر الآلهة أن لهم شيئاً من التدخل والنفوذ في ألوهية ذلك الاله الأعلى ، وأن كلمتهم تُتلقى عنده بالقبول وانه يمكن أن تتحقق أمانينا بواسطتهم ونستدر النفع ونتجنب المضار باستشفاعهم . ولمثل هذه الظنون كانوا يتخذونهم أيضاً آلهة مع الله تعالى . ومن هنا يتبيّن أن الانسان إن اتخذ أحداً شافعاً له عند الله ثم أصبح يدعوه ويستعين به ويقوم بآداب التبجيل والتعظيم ويقدم له القربات والنذور ، فكل ذلك على ما اصطلح عليه أهل الجاهلية اتخاذه إياه إلهاً . (١)

---

(١) ومما يجب أن يعرفه القارىء في هذا المقام ان الشفاعة قسمان : شفاعة يكون من ورائها نوع من أنواع القوة والنفوذ ، ويأبى الشافع إلا ان تقبل شفاعته . وشفاعة لاتقدم الى المشفوع اليه إلا كما تقدم العرائض تذللاً وتخشعاً ، -

٤ — (وَقالَ اللهُ : لاتَتَّخِذوا إِلٰهين اثنيْن ، إنما هوَ إلهٌ واحدٌ فإيايَ فارهبونِ .) (النحل: ٥١)

(ولا أخافُ ماتُشْرِكُونَ بِهِ إلا أَنْ يشاءَ رَبي شيئاً) (الأنعام : ٨٠)

(إِنْ نقولُ إلا اعْتراكَ بَعضُ آلِهتنا بسوءٍ .) (هود : ٥٤)

ويتضح من هذه الآيات الحكيمة ، أن أهل الجاهلية كانوا يخافون من قِبلَ آلهتهم أنهم إن أسخطوا آلهتهم على أنفسهم لسبب من الأسباب أو حُرِموا عنايتهم بهم وعطفهم عليهم نابتهم نوائب المرض والقحط والنقص في الأنفس والأموال ونزلت بهم نوازل أخرى .

٥ — (اتَّخذوا أحبارَهم وَرُهبانَهم أرْباباً مِنْ دونِ اللهِ وَالمسيحَ بنَ مريمَ وَما أُمِروا إلا ليَعبُدوا إلهاً واحداً لا إلهَ إلا هو) (التوبة : ٣١)

ـ لايكون من ورائها قوة تصر على ان تنبّل في كل حال . فأما من ظن أحداً شافعاً عند الله بالمعنى الاول فلا شك أنه قد اتخذه إلهاً واشركه بالله تعالى في الالوهية . وهذه هي الشفاعة التي يرفضها القرآن ويبطلها ، واما الشفاعة بالمعنى الثاني فيجوز ان يكون كل من الأنبياء والملائكة والصالحين والمؤمنين وعامة العباد شافعين بهذا المعنى إلى الله تعالى فيمن سواه من عباده ، ولله جل شأنه ان يقبل شفاعتهم او لايقبلها .

(أرأيتَ مَنِ اتَّخذَ إلهَهُ هواهُ، أفأنتَ تكونُ عليهِ وَكيلا.)

(الفرقان : ٤٣)

(وَكذلكَ زيَّنَ لكثيرٍ منَ المشركينَ قتلَ أولادِهم شركاؤهم.)

(الأنعام: ١٣٧)

(أمْ لهمْ شركاءُ شرعوا لهمْ مِنَ الدينِ مالمْ يأذنْ بهِ الله.

(الشورى : ٢١)

وفي الآيات يقف المتأمل على معنى آخر لكلمة (الاله) يختلف كل الاختلاف عن كل ماتقدم ذكره من معانيها ، فليس ههنا شيء من تصور السلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة ،فالذي اتخذ إلهاً هو إما واحد من البشر أو نفس الانسان نفسه، ولم يتخذ ذلك إلهاً من حيث أن الناس يدعونه أو يعتقدون فيه أنه يضرهم وينفعهم ، أو أنه يستجار به ، بل قد اتخذوه إلهاً من حيث تلقوا أمره شرعاً لهم، وائتمروا بأمره وانتهوا عما نهى عنه، واتبعوه فيما حلله وحرمه ، وزعموا أن له الحق في أن يأمر وينهى بنفسه، وليس فوقه سلطة قاهرة يحتاج إلى الرجوع والاستناد اليها . فالآية الاولى تبين لنا كيف اتخذت اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً وآلهة من دون الله ، كما بين ذلك الحديث النبوي الشريف فيما رواه الامام الترمذي وابن

جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه « انه دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي عنقه صليب من ذهب وهو يقرأ هـذه الآية ، قال ، فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال : بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » .

وأما الآية الثانيةفمعناها واضح كل الوضوح، وذلك أن من يتبع هوى النفس ويرى أمره فوق كل أمر فقد اتخذ نفسه إلهاً له في واقع الأمر .

أما الآيتان التاليتان بعدهما فإنه وإن وردت فيها كلمة (الشركاء) مكان (الاله) ، فالمراد بالشرك هو الاشراك بالله تعالى في الالوهية . ففي هاتين الآيتين دلالة واضحة على أن الذين يرون أنِ ماوضعه رجل أو طائفة من الناس من قانون أو شرعة أو رسم هو قانون شرعي من غير أن يستند إلى أمر من الله تعالى ، فهم يشركون ذلك الشارع بالله تعالى في الالوهية.

ملاك الامر في باب الالوهية

ان جميع ماتقدم ذكره من المعاني المختلفة لكلمة (الاله) يوجد فيما بينها ارتباط منطقي لايخفى على المتأمل المستبصر . فالذي يتخذ كائناً ما ولياً له ونصيرا وكاشفاً عنه السوء ، وقاضياً لحاجته ومستجيباً لدعائه وقادراً على أن ينفعه ويضره ،كل ذلك بالمعاني الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية ، يكون السبب لاعتقاده ذلك ظنه فيه أن له نوعاً من أنواع السلطة على نظام هذا العالم . وكذلك من يخاف أحداً ويتقيه ويرى أن سخطه يجر عليه الضرر ومرضاته تجلب له المنفعة ، لايكون مصـــدر اعتقاده ذلك وعمله إلا مايكون في ذهنه من تصور أن له نوعا من السلطة

على هذا الكون . ثم ان الذي يدعو غير الله ويفزع إليه في حاجاته بعد ايمانه بالله العلي الاعلى ، فلا يبعثه على ذلك إلا اعتقاده فيه أن له شركاً في ناحية من نواحي السلطة الالوهية . وعلى غرار ذلك من يتخذ حكم أحد من دون الله قانوناً ويتلقى أوامره ونواهيه شريعة متبعة فإنه أيضاً يعترف بسلطته القاهرة . فخلاصة القول أن أصل الالوهية وجوهرها هو السلطة سواء أكان يعتقدها الناس من حيث ان حكمها على هذا العالم حكم مهيمن على قوانين الطبيعة ، أو من حيث أن الانسان في حياته الدنيا مطيع لأمرها وتابع لارشادها ، وأن أمرها في حد ذاته واجب الطاعة والاذعان .

استدلال القرآن

وهذا هو تصور السلطة الذي يجعله القرآن الكريم أساساً لما يأتي به من البراهين والحجج على إنكار ألوهية غير الله ، واثبات الألوهية لله تعالى وحده . فالذي يستدل به القرآن في هذا الشأن هو أنه لا يملك جميع السلطات والصلاحيات في السماوات والأرض إلا الله . فالخلق مختص به ، والنعمة كلها بيده ، والأمر له وحده ، والقوة والحول في قبضته ، وكل ما في السماوات والأرض قانت له ومطيع لأمره طوعاً وكرها ، ولا سلطة لأحد سواه ولا ينفذ فيها الحكم لأحد غيره ، وما من أحد دونه يعرف أسرار الخلق والنظم والتدبير ، او يشاركه في صلاحيات حكمه . ومن ثم لا إله في حقيقة الأمر إلا هو ، واذ لم يكن في الحقيقة إله آخر

من دون الله ، فكل ماتأتونه من الأفعال معتقدين غيره إلهاً باطل من اساسه ، سواء أكان ذلك دعاءكم إياه واستجارتكم به ام كان خوفكم اياه ورجاءكم منه ، أم كان اتخاذكم إياه شافعاً لدى الله ، أم كان اطاعتكم له وامتثالكم لأمره ؛ فان هذه الأواصر والعلاقات التي قد عقدتموها مع غير الله، يجب أن تكون مختصة بالله سبحانه لأنه هو الذي يملك السلطة دون غيره .

وأما الأسلوب الذي يستدل به القرآن الكريم في هذا الباب ، فدونك بيانه في كلامه البليغ المعجز :

(وَهوَ الذي في السَّماء إلهٌ وَفي الأرْضِ إلهٌ وَهوَ الحَكيمُ العَليم)

(الزخرف : ٨٤)

(أفَمَنْ يخلُقُ كَمَن لايخلُقُ أفلا تذَكَّرونَ) (وَالذينَ يدعونَ مِن دونِ اللهِ لايخلُقونَ شيئاً وَهمْ يُخلَقونَ) (إلهُكم إلهٌ واحدٌ .) (النحل : ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢)

(ياأيُّها الناسُ اذكروا نعمةَ اللهِ عليكُم هلْ مِنْ خالِقٍ غيرُ اللهِ يرزُقُكمْ منَ السَّماء وَالأرْضِ لا إله إلاّ هو ، فأنّى تُؤفَكونَ .) (فاطر : ٣)

(قُـلْ أَرأيتُم إنْ أخذَ اللهُ سمعَكم وأبصارَكُمْ وختَمَ على قلوبِكمْ مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكُمْ بِهِ .) (الأنعام:٤٦)

(وهوَ اللهُ لا إلهَ إلاّ هوَ لهُ الحمدُ في الأولى والآخرَةِ ولهُ الحُكْمُ وإليهِ تُرجَعونَ . قُلْ أرأيتُم إنْ جعلَ اللهُ عَليكُمُ الليلَ سَرْمَداً إلى يومِ القيامةِ مَنْ إله غيرُ اللهِ يأتيكُمْ بضياءٍ أفلا تَسمعونَ . قُلْ أرأيتُم إنْ جَعَـــلَ اللهُ عليكُمُ النهارَ سَرمداً إلى يومِ القيامةِ مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكُمْ بليلٍ تَسكُنونَ فيهِ أفلا تُبصِرونَ .) (القصص : ٧ - ٧٢)

(قُلِ ادْعوا الذينَ زعمْتُم من دونِ اللهِ لايملكونَ مِثقالَ ذرَّةٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ وما لَهم فيهما مِنْ شِركٍ وما لهُ منهم من ظهير. ولا تنفعُ الشَّفاعَةُ عندهُ إلاّ لِمنْ أذنَ لهُ.)
(سبأ : ٢٢ : ٢٣)

(خلَقَ السماواتِ والأرضَ بالحقِّ يُكوِّرُ الليلَ على النَّهارِ

وَيُكَوِّرُ النهارَ على الليلِ وَسخَّرَ الشَّمسَ وَالقمَرَ كلٌ يجري لأَجلٍ مُسمّىً) (الزمر : ٥)

(خلقكمْ مِنْ نفسٍ واحدَةٍ ثمَّ جَعلَ منها زوجها وَأَنزَلَ لكمْ مِنَ الأَنعامِ ثمانيةَ أَزواجٍ يخلقُكمْ في بُطونِ أُمهاتِكمْ خلقاً مِنْ بعدِ خلقٍ في ظُلُماتٍ ثلاثٍ ذلكُم اللهُ رَبُّكمْ لهُ المُلْكُ لا إلهَ إلاّ هوَ فأَنَّى تُصْرَفونَ .) (الزمر : ٦)

(أَمَّنْ خَلَقَ السماواتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لكُمْ مِنَ السماءِ ماءً فأَنبتنا بهِ حدائقَ ذاتَ بهجةٍ ما كانَ لكمْ أَنْ تُنبتوا شجرَها أَإلهٌ معَ اللهِ بلْ هُمْ قوْمٌ يعدِلونَ . أَمَّنْ جَعلَ الأَرْضَ قراراً وَجَعلَ خِلالها أَنهاراً وَجعل لها رواسيَ وَجَعلَ بينَ البحْرَينِ حاجزاً . أَإلهٌ مَعَ اللهِ بلْ أَكثرُهُمْ لا يعلمونَ ، أَمَّنْ يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ وَيكشفُ السوءَ وَيجعلُكمْ خلفاءَ الأَرْضِ . أَإلهٌ مَعَ اللهِ قليلاً ما تذكَّرونَ . أَمَّنْ يَهديكمْ في ظلُماتِ البرِّ وَالبحْرِ وَمنْ يُرْسِلُ الرّياحَ بُشرىً بينَ يديْ رَحمتهِ أَإلهٌ

مع الله تعالى الله عما يشركون. أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.) (النمل: ٦٠ - ٦٤)

(الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً. واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً.)

(الفرقان: ٢: ٣)

(بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم. ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل). (الأنعام: ١٠١ - ١٠٢)

(ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله، ولو يرى الذين ظلموا

إذ يرونَ العذابَ أنَّ القوةَ للهِ جميعاً .) (البقرة : ١٦٥)

(قُلْ أرأيتُمْ ماتدعونَ مِنْ دونِ اللهِ أروني ماذا خلقوا من الأرْضِ أمْ لَهُمْ شِرْكٌ في السَّماواتِ) (وَمَنْ أضلُّ مِمّنْ يدعو مِنْ دونِ اللهِ مَنْ لايستجيبُ لَهُ إلى يومِ القيامَةِ٠)

(الأحقاف : ٤،٥)

(لو كانَ فيهما آلِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفسدَتا فَسبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمّا يَصِفونَ٠ لايُسئَلُ عَمّا يَفعَلُ وَهُمْ يُسئَلونَ .)

(الأنبياء : ٢٢ – ٢٣)

(ما اتّخذَ اللهُ مِنْ وَلدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إلهٍ إذاً لَذهبَ كلُّ إلهٍ بِما خَلَقَ وَلعَلا بَعضُهمْ على بَعضٍ .) (المؤمنون :٩١)

(قُلْ لوكانَ معهُ آلِهَةٌ كَما يَقولونَ إذاً لابتَغوا إلى ذي العَرْشِ سَبيلاً . سُبحانَهُ وَتعالى عَمّا يَقولونَ علوّاً كَبيراً .)

(الاسراء : ٤٢ – ٤٣)

ففي جميع هذه الآيات من أولها الى آخرها لاتجد إلا فكرة رئيسية واحدة

ألا وهي أن كلا من الألوهية والسلطة تستلزم الاخرى وأنه لافرق بينهما من حيث المعنى والروح. فالذي لاسلطة له ، لا يمكن أن يكون إلهاً ولا ينبغي أن يتخذ إلهاً. وأما من يملك السلطة فهو الذي يجوز أن يكون إلهاً وهو وحده ينبغي أن يتخذ إلهاً . ذلك بأن جميع حاجات المرء التي تتعلق بالاله أو التي يضطر المرء لأجلها أن يتخذ أحداً إلها له لا يمكن قضاء شيء منها من دون وجود السلطة . ولذلك لامعنى لالوهية من لاسلطة له ، فإن ذلك أيضاً مخالف للحقيقة ، ومن النفخ في الرماد أن يرجع اليه المرء ويرجو منه شيئاً .

والأسلوب الذي يستدل به القرآن واضعاً بين يديه هذه الفكرة الرئيسية ، يمكن القارىء أن يفهم مقدماته ونتائجه حق الفهم بالترتيب الآتي:

١ - إن أعمال قضاء الحاجة وكشف الضرر والاجارة والتوفيق والنصر والرقابة والحماية وإجابة الدعوات التي قد تهاونتم بها وصغرتم من من شأنها ، ماهي بأعمال هينة في حقيقة الأمر ، بل الحق أن صلتها وثيقة بالقوى والسلطات التي تتولى أمر الخلق والتدبير في هذا الكون. فإنكم إن تأملتم في المنهاج الذي تقضى به حوائجكم التافهة الحقيرة، عرفتم أن قضاءها مستحيل من غير أن تتحرك لأجله عوامل لاتحصى في ملكوت الأرض والسماء خذوا لذلك مثلاً كأساً من الماء تشربونها أو حبة من القمح تأكلونها فما أدراكم إذ تعمل كل من الشمس والأرض والرياح والبحار قبل أن تتهيأ لكم هذه وتصل إلى أيديكم. فالحق أنه لا تتطلب إجابة دعائكم

وقضاء حاجتكم وما إليها من الشؤون سلطة هينة ، بل يتطلب ذلك سلطة يقتضيها ويستلزمها خلق السماوات والأرض وتحريك السيارات وتصريف الرياح وإنزال الأمطار وبكلمة موجزة يقتضيها ويتطلبها تدبير نظام هذا الكون بأسره .

٢ – وهذه السلطة غير قابلة للتجزئة ، فلا يمكن أبداً أن تكون السلطة في أمر الخلق بيد وفي أمر الرزق بيد أخرى ، وأن تكون الشمس مسخرة لهذا وتكون الأرض مذللة لذاك . كما لا يمكن أن يكون الانشاء في يد والمرض والشفاء في يد أخرى ، والموت والحياة بيد ثالثة . فانه لو كان الأمر كذلك لما أمكن لنظام هذا الكون أن تقوم له قائمة . فما لابدّ منه أن تكون جميع السلطات والصلاحيات بيد حاكم واحد يرجع إليه كل مافي السماوات والأرض . فانّ نظام هذا العالم يقتضي أن يكون الأمر كذلك وهو في الواقع كذلك :

٣ – وإذ كانت السلطة كلها بيد الحاكم الواحد ولم يكن لأحد غيره نقير منها ولا قطمير ، فالألوهية أيضاً مخصوصة به لامحالة ، وخالصة له دون غيره ولاشريك له فيها . فلا يملك أحد من دونه أن يغيثك أو يستجيب دعاءك أو يجيرك أو يكون حامياً لك ونصيراً أو ولياً ووكيلاً ، أو يملك لك شيئاً من النفع أو الضر . إذاً لا إله لكم غير الله بمعنى من تلك المعاني التي قد تخطر ببالكم ، حتى إنه لا يمكن أن يكون أحد إلهاً لكم بأن له دالة عند حاكم هذا الكون وتتقبل شفاعته لديه ، لمكانه من التقرب عنده .

كلا بل ليس فى وسع أحد أن يتصدى لأمر من أمور حكمه وتدبيره ، ولا يستطيع أحد أن يتدخل في شيء من شؤونه ، وكذلك قبول الشفاعة أو رفضها متوقف على مشيئته وإرادته ، وليس لأحد من القوة والنفوذ مايجعل شفاعته مقبولة لديه .

٤ ـ ومما يقتضيه توحد السلطة العليا أن يكون جميع ضروب الحكم والأمر راجعة إلى مسيطر قاهر واحد ، وإلا ينتقل منه جزء من الحكم إلى غيره. فإنه إذا لم يكن الخلق إلا له ولم يكن له شريك فيه، وإذا كان هو الذي يرزق الناس ولم تكن لأحد من دونه يد في الأمر ، وإذا كان هو القائم بتدبير نظام هذا الكون وتسيير شؤونه ولم يكن له في ذلك شريك، فما يتطلبه العقل ألا يكون الحكم والأمر والتشريع إلا بيده كذلك ولا مبرر لأن يكون أحد شريكاً له في هذه الناحية أيضاً. وكما أنه من الخطأ أن يكون أحد غيره مجيباً لدعوة الداعي وقاضياً لحاجة المحتاج ، ومجيراً للمضطر في دائرة ملكوته في السموات والأرض ، فمن الخطأ والباطل كذلك أن يكون أحد غيره حاكماً مستقلاً بنفسه ، وآمراً مستبداً بحكمه ، وشارعاً مطلق اليد في تشريعه ، إن الخلق والرزق والاحياء والإماتة ، وتسخير الشمس والقمر ، وتكوير الليل والنهار والقضاء والقدر ، والحكم والملك ، والأمر والتشريع ... كل اولئك وجوه مختلفة للسلطة الواحدة ، ومظاهر شتى للحكم الواحد ، والحكم والسلطة لايقبل شيء منها التجزئة والتقسيم البتة . فالذي يعتقد أن أمر كائن مامن دون الله مما يجب إطاعته والاذعان له

بغير سلطان من عنـد الله ، فانه يأتي من الشرك بمثل مايأتي به الذي يدعو غير الله ويسأله . وكذلك الذي يدعي أنه مالك الملك ، والمسيطر ،القاهر ، والحاكم المطلق بالمعاني السياسية [1] ، فان دعواه هذه كدعوى الالوهية ممن ينادي بالناس : « إني وليكم وكفيلكم وحاميكم وناصركم » ، ويريد بكل ذلك المعاني الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية . ألم تر أنه بينما جاء في القرآن أن الله تعالى لاشريك له في الخلق وتقدير الأشياء وتدبير نظام العالم ، جاء معه أن الله له الحكم وله الملك ليس له شريك في الملك ، مما يدل دلالة واضحة على أن الألوهية تشتمل على معاني الحكم والملك أيضاً ، وانه مما يستلزمه توحيد الإله ألا يشرك بالله تعالى في هذه المعاني كذلك . وقد فصل القول في ذلك اكثر مما تقدم فيما يلي من الآيات :

(قلْ اللهمَّ مالكَ الملكِ تؤتي الملكَ مَنْ تشاء ، وَتنْزعُ الملكَ ممن تشاء وتُعزُّ مَنْ تشاء وَتُذِلُّ مَنْ تشاء .)

(آل عمران : ٢٦)

(قلْ أعوذُ بربِّ الناسِ . مَلِكِ الناسِ . إلٰهِ الناسِ .)

(الناس : ١ — ٣)

---

(١) انظر تحقيق ذلك وبسطه في رسالة (نظرية الإسلام السياسية) للمؤلف

وقد صرح القرآن بالأمر بأكثر من كل ماسبق في (سورة غافر) حيث جاء :

(يومَ هم بارزونَ ، لايخفى على اللهِ منهم شيءٌ ، لِمَنْ الملكُ اليومَ للهِ الواحدِ القهارِ .) (غافر : ١٦)

أي يوم يكون الناس قد انقشعت الحجب عنهم ، ولا يخفى على الله خافية من أمرهم ، ينادي المنادي : لمن الملك اليوم ؟ . ولا يكون الجواب إلا أن الملك لله الذي قد غلبت سلطته جميع الخلق ، وأحسن مايفسر هذه الآية ماوراهُ الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ورسول الله ﷺ يقول : هكذا بيده ويحركها ، يقبل بها ويدبر ، يمجد الربُّ نفسه ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله ﷺ المنبرُ حتى قلنا : ليخرَّنَّ به(١) .

---

(١) تخريج الحديث في الملحق الخامس في آخر الكتاب .